مؤتمر
هدايات القرآن في بناء الإنسان

عنوان البحث:

الهداياتُ القُرآنيَّة في بناء النَّفْس الإنسانيَّةِ
في ضوء سورة الفجر

اسم الباحث/ـة

أ.د/ عَبْد الحَمِيد بِن حَمْدِي الحُصَرِي

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

بالمقدِّمة:

الحمد لله ربِّ العالمين، الرَّحمن الرَّحيم، مالك يوم الدِّين، والصَّلاةُ والسَّلام الأتمَّان الأكملان على خير الورى طُرًّا، وأزكاهم فرعًا وأصلًا، يقول تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾سورة الإسراء٩. ويقول النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: "تركتُ فيكم ما إن تمسَّكتم به لن تضلوا بعد؛ كتاب الله". ثُمَّ أمَّا بعدُ:

فلمَّا كان الأمر بطلب الهدايةِ واجبًا على كل مُسلمٍ سبعَ عشرةَ مرَّةً في كلِّ يومٍ وليلةٍ؛ بقوله في فاتحةِ الكتابِ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾سورة الفاتحة: ٥ ، وكان أوَّلَ وَصْفٍ وَصَفَ اللهُ به كتابَه في سورةِ البقرةِ ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾سورة البقرة: ٢ ، كان الاهتمامُ بهداياتِ القرآنِ مِن أهمِّ المُهمَّاتِ،

ولـمَّا كانت النَّفْسُ الإنسانيَّ لها شأنٌ عظيمٌ في كتابِ الله حتَّى أقسمَ الله عزَّ وجلَّ بها من فوق سبعِ سماواتٍ في سورةِ الشَّمسِ، والعظيمُ لا يُقسمُ إلَّا بعظيمٍ، فقال سبحانه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ سورة الشمس: ٧-١٠ ،دلَّ ذلك على كونِها ركنًا ركينًا في بناءالإنسانِ وفلاحِه،

فلمَّا كان ذلك كذلك؛ كانت العنايةُ بهداياتِ القرآنِ في بناء النَّفْسِ الإنسانيَّةِ من خلال إحدى سُورِ أواسطِ المفصَّلِ العظيمةِ، وهي سورة الفجر؛ لما حَوَت من مقاصدَ جليلةٍ، وجوانبَ مُتنوّعةٍ، مُتعلِّقةٍ بإثراءِ النَّفْسِ الإنسانيةِ ظاهرًا وباطنًا، وترغيبًا وترهيبًا، تزكيةً وصلاحًا.

وسيكون الحديثُ في هذا البحث من خلال: مُقدِّمةٍ ثُمَّ أربعة مباحث، ثُمَّ خاتمة فيها أهمُّ النَّتائجِ والتَّوصياتِ، والله مِن وراء القَصْدِ.

أسبابُ اختيار الموضوع:

أوَّلًا: إبرازُ مركزيَّةِ هدايةِ القرآنِ في بناء النَّفُسِ الإنسانيَّةِ.

ثانيًا: بيانُ ما تشتملُ عليه سورةُ الفجرِ من جوانبَ مُتَنوِّعةٍ في تزكيةِ النَّفْسِ وتقويمِها، ترغيبًا وترهيبًا، عقدَيًّا وأخلاقيًّا، سُلوكيًّا ونَفْسيًّا.

ثالثًا: إبرازُ تميُّزِ الهدي القرآنيّ في بناء النَّفْسِ الإنسانيَّةِ بناءً مُتوازنًا قويمًا مُتماسكًا، يستطيعُ التَّغلُّبَ على ضغوطِ الحياةِ، ويحسُنُ التَّعامُل معها وفْق فَهمٍ قرُآنيٍّ فريدٍ رشيدٍ، مُؤصَّلٍ مُلابِسٍ لحال المَدعوين.

خطة البحث:

وتشتملُ خطَّةُ البحث على:

المُقدِّمة: وتحتوي على أهميَّةِ الموضوع، وأسبابِ اختياره، وأربعَ مباحثَ، وخاتمةٍ؛ وفيها أهمُّ النَّتائجِ والتَّوصيات.

المبحثُ الأوَّلُ: الهداياتُ القُرآنيَّةُ في بناءِ النَّفْسِ الإنسانيَّةِ المُتعلِّقةُ بالقَسَمِ وأَثَرِه.

المبحثُ الثَّاني: الهداياتُ القرآنيَّةُ في بناءِ النَّفْسِ الإنسانيَّةِ المُتعلقةُ بعاقبةِ الطُّغاةِ.

المبحثُ الثَّالثُ: الهداياتُ القرآنيَّةُ في بناءِ النَّفْسِ الإنسانيَّةِ المُتعلِّقةُ بتصحيحِ المعاييرِ.

المبحثُ الرَّابعُ: الهداياتُ القرآنيَّةُ في بناءِ النَّفْسِ الإنسانيَّةِ المُتعلِّقةُ بأحوالِ النَّاسِ في الآخرةِ.

الخاتمة: وفيها أهمُّ النَّتائجِ والتَّوصياتِ.

المبحث الأوَّل: الهداياتُ القُرآنيَّةُ في بناءِ النَّفْسِ الإنسانيَّةِ المُتعلِّقةُ بالقَسَمِ وأَثَرِه.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ سورة الفجر:١

أولًا: أثر تكرارِ القَسَمِ على النَفسِ من ترسيخٍ لأهمِيَّةِ المُقسَمِ عليه، وأهمِيَّة المُقسَم به؛ لأنَّ العظيمَ لا يُقسِم إلا بعظيمٍ على أمرٍ عظيمٍ، فكيف لو كرَّر ذلك!

ثانيًا: فيها عظمة المُقسَم به على النَّفسِ، وهو يرجع لثلاثة أُمُورٍ:

١. بيانُ قُدرة الله على مُداولته بين الليل والنهار.

٢. تعظيمُ أزمنةِ الطَّاعةِ.

٣. ترهيبٌ بِذِكْر أزمنةِ إهلاكِ الظالمين.

١ـ **بيانُ عظيمِ قُدرةِ الله في خَلْقِه**، وتدبيرِه وفقَ عِلْمِه وحِكْمتِه وعَدْلِه، بأن قَدِرَ سبحانه على تنويع الزَّمانِ، بأن يُولجُ اللَّيلَ في النَّهارِ، ويُولِجُ النَّهارَ في اللَّيلِ، وهذا مِنَ النِّعَمِ العظيمةِ، بأن ناوع بين الأزمانِ في صِفتِها ما بين النُّورِ والظُّلْمَةِ؛ فيظهرُ فَضْلُ كُلٍّ منها على الأُخرى في وقتها، وناوَعَ بينها في الفضلِ والبركةِ؛ فخصَّ آخرَ اللَّيلِ وأوَّلَ النَّهارِ بِبرَكاتٍ ورَحَماتٍ، وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء؛ لأنَّها أوقاتُ غفلةٍ، يظهرُ فيها الصَّادقون في طلب الأجرِ ورضا الله؛ ولهذا أثرٌ عظيمٌ على النَّفسِ، مِن جرَّاء قُوَّةِ التَّأمُّلِ والتَّفكُّرِ في هذه الأزمانِ، وقُدرةِ خالقِها وحكمتِه.

٢. **بيانُ عظمةِ وفَضْلِ أوقاتِ الطَّاعةِ**، وأنَّها تستحقُّ القَسَمَ بها، وهذا شاملٌ لصلاةِ الفَجْرِ في كُلِّ يومٍ على قول ابن عباس(١) رضي الله عنهما التي مَن أدَّاها في جماعةٍ فهو في ذمَّةِ الله، بِنَصِّ الصَّادقِ المصدوقِ الذي لا ينطق عن

---

(١) زاد المسير، لابن الجوزي (١٥٤٣)، المكتب الإسلامي.

الهوى، والتي يشهدها الملائكةُ وقُرآنُ الفجر، ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء : ٧٨] وهذا الزَّمنُ الشَّريفُ الذي كان يُعظِّمُهُ السَّلَفُ بالذِّكْرِ والعبادةِ عُمُومًا، وكذلك قد يُرادُ به فَجْرٌ خاصٌّ ليوم النَّحرِ كما قاله مُجاهدٌ ومسروقٌ وغيرُهم(١)، فيكونُ نُورًا على نُورٍ، جمع فضلِ زمانَيْن؛ أفضل أوقات اليوم، مع أفضلِ أيَّام السَّنَةِ على الإطلاقِ، وأَحَبِّها إلى الله؛ لقول الصَّادق المصدوق صلى الله عليه وسلم: "أفضلُ الأيَّام عند الله يومُ النَّحْرِ"(٢)، وكذلك في اللَّيالي العَشْرِ، فهي ترجع في أقوالِ السَّلَف لأوقاتٍ وأزمنةٍ فاضلةٍ، أمَّا عشر ذي الحجة، كما ورد عن ابن عباس(٣) رضي الله عنهما وغيره، وفيها يومُ عرفةَ أو العشرُ الأواخرُ من رمضان، كذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيها ليلةُ القَدْرِ أو عشر المحرَّم عن يمان بن رئاب، وفيه يوم عاشوراء، وفيه أَثَرٌ عظيمٌ على النَّفْسِ من تشريفِ هذه الأزمانِ، وحَثٍّ لها على اقتناصِها واغتنامِها وحُسْن استغلالِها؛ لِكَوْن الله عزَّ وجلَّ أَقْسَمَ بها، مِمَّا يدُلُّك على شريف ما احتوته من خزائنَ تستحقُّ أن تُمْلأَ بأَنْفَسِ الأعمال وأزكاها.

ـ وكذلك ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ [الفَجْر : ٣] ، فهي: إمَّا الصَّلاةُ المعروفةُ من شفْعٍ ووترٍ كما ورد عن قتادة(٤)، أو الزَّمان الفاضل كيوم عرفَةَ ويومِ النَّحْرِ وليلتِه(٥)، وكلُها أزمانٌ شريفةٌ، وفي القَسَمِ بها حثٌّ للنَّفْسِ على العملِ والجدِّ.

ـ قوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ [الفَجْر : ٤]: قَسَمٌ بالزَّمانِ الفاضلِ، وهو مع كونه نعمةً عظيمةً يستريح النَّاسُ في أوَّله، فيُعانون على اعمالهم وطلب معايشهم

---

(١) زاد المسير، لابن الجوزي (١٥٤٣).

(٢) أخرجه أبو داود برقم (١٧٦٥)، وصحيح أبي داود، للألباني برقم (١٥٤٥).

(٣) زاد المسير (١٥٤٣).

(٤) زاد المسير (١٥٤٤).

(٥) المصدر نفسه (١٥٤٣).

بالنَّهار، فكذلك للمُوَفَّقين فيه نصيبٌ من آخرِه في تهجُّدٍ واستغفارٍ ودعاءٍ وتَبَتُّلٍ لربِّهم السَّميعِ القريبِ المُجيبِ, الذي ينزل نُزولًا يليق بجلاله في هذا الوقت الشَّريف كما صحَّ بذلك الخبر، ففيه أَثَرٌ بالغٌ على النَّفْسِ من بيان عظيمِ القُدرةِ والحِكْمةِ, واغتنام شريف الزَّمان والوقت.

٣. في القَسَم بهذه الأزمان (الفجر، والليالي العشر، والشفع والوتر، والليل إذا يسر) ما يبعث في النَّفس ترهيبًا بالغًا من أزمان إهلاك الظالمين حتى أقسَمَ ربُّ العزَّةِ بها سبحانه؛ فالفجر هو الوقت الذي نزلَ فيه عذابُ الله على عددٍ من الأُممِ المُكذِّبةِ؛ لطُغيانِها.

-﴿ولَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفَجْر : ٢]: هي أيَّامُ سيرِ بني إسرائيل مع موسى فارِّين من فرعون وجنودِه في شهر الله المُحرَّمِ،

﴿ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ﴾ [الفَجْر : ٣]: هي سبعُ ليالٍ وثمانيةُ أيَّامٍ حُسُومًا، أهلك اللهُ فيها قومَ عادٍ.

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ [الفَجْر : ٤]: فيه تبييت النَّاس بالعذابِ، وفي تتابُعِ هذه الأنواعِ الزاجرةِ من القَسَمِ ما ترعوي به النَّفْسُ المؤمنةُ، فترهبُ عذابَ ربِّها، وله تنقاد، وفيه: إيقاظٌ للنَّفْسِ الغافلةِ الآثمةِ الغاشمةِ الظَّالمةِ لنفسها؛ لتؤوب وترجع، وفيه: استيقانٌ للنَّفْس المطمئنَّةِ بِوَعدِ ربِّها ووعيدِه بالانتقام من الظالمين، ومُحاسبةِ الكافرين والمُنافقين؛ ليشفيَ صدُورَ قومٍ مؤمنين.

ثم قال تعالى: ﴿ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ﴾ [الفَجْر : ٥] أي: هل في ما سبق مُقنعٌ وكفايةٌ لذي الحجر، وأصله في اللُّغةِ من المَنْع، في إشارةٍ لكَوْنِ الإنسانِ المُكلَّفِ في صراعٍ عظيمٍ بين نَفْسِه الأمَّارةِ وعقلِه الذي يحجُرُه عن مطاوعتِها(١)؛ ولذا يُقال للرَّجُلِ إذا ملك نَفْسَه وقَهَرَهَا وضَبَطَها، إنَّه لذو

(١) انظر: المفردات، للراغب (٢٢٠)

حِجْر(١), والمراد بهذه الآيةِ: تعدِّيه المعاني السابقةِ وآثارها العظيمةِ في بناءِ النَّفْسِ والوُجدانِ؛ فالمُتدبِّرُ لأضرُبِ القَسَمِ الآنِفَةِ الذِّكْرِ يجد أنَّها رسائلٌ من الله إِلَيْه:

أوَّلًا: يا مَن عرفْتَ وشاهدتَ قُدرةَ اللهِ البالغةَ في إيلاجِ اللَّيلِ في النَّهار، وانفجارِ ضياء الصُّبحِ من سوادِ اللَّيلِ البهيم، وتتابُعِ ذلك، ففيه إشارةٌ على إدَالةِ الحق على الباطل وإن بَقِيَ الصِّراعِ بينهما، فيُخرجُ اللهُ أهلَ النُّورِ من الظُّلُماتِ، وينصُرُهم على عَدوِّهم، فاحرصْ أيُّها العاقلُ الرَّشيدُ أن تكونَ في زُمرةِ أهلِ الحقِّ؛ ليكون لك الرِّفْعةُ والنُّصْرةُ من الله سبحانه.

ثانيًا: مَن تَدَبَّرَ هذه الأنواعَ من القَسَمِ كان أثرُها على بناء نَفْسِه التَّعبُّديِّ بالغًا لما لهذه الأزمانِ الفاضلةِ من وسيلةٍ عظيمة التَّأثيرِ على الثَّباتِ على الدِّين في مُواجهةِ عواصفِ الفِتَنِ في هذه الأزمانِ ممَّا يجعلُها زادًا لسائرِ العام، ينهلُ من مَعينِه المُوحِّدُ الصَّادقُ.

وكذلك ما يحصلُ له من طمأنينةِ القلب وفَرَحِه بِفَضْلِ الله ورحمتِه في مواسمِ الخيرِ والطَّاعةِ التي تزيد بها الأجورُ، وتنشرحُ بها الصُّدُورُ، وتتيسَّرُ بها الأُمُورُ، وتنفرجُ بها الكُرُوبُ، وتنقشعُ غُيُومُ الغفلةِ ورانِ القُلُوبِ.

ثالثًا: مَن تأمّل في أزمانِ إهلاكِ الطُّغاةِ الجبابرةِ مهما بلغوا من عُتُوٍّ وجَبَروتٍ وكبرياءٍ أرادوا زُورًا وبُهتانًا مُنازَعةَ اللهِ سبحانه فيه حَمَل ذلك النَّفْس على عدمِ تَجَاوُزِ قدرِها الذي حدَّه الله، تلك حدود الله فلا تقربوها ولا تعتدوها،

ـ **وفيه**: تهذيب النَّفْسِ التي من شأنها الظُّلْمُ والجَهْلُ بمصارعِ الطُّغاةِ وإهلاكِهم.

ـ **وفيه**: أنَّ مَن أقسمَ بهذا القسمِ العظيمِ قادرٌ على بعثِه ومُحاسبتِه وإعانتِه في وقت الطَّاعةِ، وإهلاكِه في وقت معصيتِه في عُتُوٍّ وتكبُّرٍ، فينبغي أن ينخلعَ

(١) جامع البيان ,للطبري (٢٤\٣٥٩)، دار هجر، ونظم الدرر، للبقاعي (/).

العبدُ مِن حَوْلِه وقُوَّته إلى حولِ الله وقُوَّتِه، وأن يفتقرَ كثيرًا، مُرَدِّدًا: "لا حولَ ولا قوَّةَ إلا بالله" فلا تَحَوُّلَ من حالِ ضعفٍ إلى حالِ قُوَّةٍ إلَّا بمعونتك، ولا قُوَّةَ على طاعتِك إلَّا بتوفيقِه.

ـ **وفيه**: أثرُ هذا الاستفهامِ لتقريرِ النَّفْسِ بتعظيمِ شأنِ المُقسَمِ به، وتفخيمِه، وأنَّها ذاتُ وقعٍ عظيمٍ على تلك النَّفْسِ لأصحابِ العقول الرَّاجحةِ المُتأمِّلةِ، والغرضُ من ذلك كلِّه هو: الانزجارُ والارتداعُ، وشِدَّةُ الانتباهِ للقَسَمِ والمُقسَمِ عليه، وكان في تنكيرِ القَسَمِ مَزيدُ تنبيهٍ لجلالةِ القَسَمِ والمُقسَم عليه(١).

سادسًا: في سَوْقِ قَصصِ الأُممِ السَّابقةِ إثارةٌ للفِطرةِ والعقل الذي يقضي بالتَّساوي في القُدرةِ والمقدور عليه، فما في الكوْنِ إلَّا خالقٌ قَوِيٌّ قادرٌ، ومخلوقٌ ضعيفٌ قاصرٌ مقدورٌ عليه، فكانَ في سَوْقِ قَصَصِ السَّابقين من الأُممِ الذين نكَّلَ اللهُ عزَّ وجلَّ بهم إثارةً لعُقُولِ اللَّاحقين، ببيانِ أنَّ الذي قدر على مَن سَبَقَكم من بني آدمَ قادرٌ عليكم كذلك؛ لعدمِ تَغَيُّر قُوَّةِ الله وقُدرتِه وقَهرِه لخَلْقِه سبحانه.

وفيه: استخدام لقياس الأَوْلى؛ لـمَا ورد في الآياتِ من تَفْصيلِ قُوَّتِهم وبيانهم يقيسُ المُتدبِّر لها حالَه على حالهم، فإن كان دونهم ولا شكَّ بِنَصِّ الآيةِ الكريمةِ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [الفَجر: ٨]، وكانت قُدرةُ الله على المُتأخِّرِ من بابِ أَوْلى، وهي إشارةٌ غيرُ مُباشرةٍ، ولكنَّها بالغةُ الأثرِ، عظيمُ الوَقْعِ في النَّفْسِ.

ـ وفيه: استعمالُ القرآن للدَّليلِ العقليّ الصَّحيحِ، ومُخاطبتِه للعقلِ والفِطرةِ والنَّفْسِ والوُجْدان في آنٍ واحدٍ، وهذا من وُجُوهِ إعجازه.

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣١٦/٣٠).

المبحث الثَّاني: الهداياتُ القُرآنيَّةُ في بناءِ النَّفْسِ الإنسانيَّةِ المُتعلِّقةُ بعاقبة الطُّغاة.

ثمَّ قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾[الفَجْر : ٦]

ـ فيه: الاستفهام للتَّشويق والتَّنبيه، وفيه: الأمرُ بالتَّدبُّر في المَثُلات، وكيف أَهْلَكَ اللهُ الظالمين وبَطَشَ بهم تفصيلًا، وهو المُرادُ من السُّؤالِ عن الكيفيَّةِ؛ لما في ذلك من أثرٍ بالغٍ في النَّفْسِ؛ لزيادةِ الإيمانِ التَّفْصيليِّ بصفات الله عز وجل من القُوَّةِ والقُدرةِ والانتقام والبَطْشِ والعَدْلِ والحكمةِ والعِلْمْ، وهذا ظاهرٌ.

ـ كما فيه إشارةٌ لصفاتٍ أُخرى كصفات الرَّحمةِ؛ لكَوْنِ الله عزَّ وجلَّ ساق هذه القصصَ لتكون زاجرةً لمَن بعدَهم؛ فتكون سببًا في رحمتهم ممَّا وقع بِمَن سبَقَهم.

ـ وفيه إشارةٌ كذلك لأسماء أخرى؛ كالشَّهيدِ والرَّقيبِ والحفيظِ والقريبِ بما فيها من معاني الإحاطةِ لما كان يعمل الطُّغاةُ العُصاةُ؛ إذ لا يكون عقابٌ بغير إحاطةٍ واطِّلاعٍ، وهذا من أعظمِ ما تُربَّى عليه النَّفْسُ، وتُبنى فيها مدارجُ اليقين في منازل العلم بالأسماءِ والصِّفات الإلهيَّة.

ـ في قوله: ﴿ رَبُّكَ ﴾[الفَجْر : ١٣] بيانٌ وتنبيهٌ للنَّفْسِ المُؤمنةِ بمُقتضيات الرُّبُوبيَّةِ من التَّدبيرِ والقَهرِ؛ لتعلمَ النَّفْسُ قَدْرَها فلا تعلوه، فتُعظِّمُ ربَّها رهبةً ورغبةً، لأنَّ أمَرَها كلُّه بِيَدِه وحده سبحانه.

ثم في قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ [الفَجْر : ٦ - ٧]

فيه: تعليمٌ للنَّفْسِ أن تَبدأ عند المُحاجَجَةِ بالأظهرِ في المراد، وهذا بناءٌ عقليٌّ صحيحٌ للنَّفس والوُجدان، فقد بدأ الله عز وجل بمَن تميَّز في قُوَّته، وقد نصَّ الرَّبُّ تبارك وتعالى على هذا التَّميُّز.

وقال سبحانه: ﴿ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴾[الفَجْر : ٨] أي: أنهم فاقوا غيرهم على نحوٍ لم ولن يتكرر، وهذا وجهُ قُوَّةِ الاستدلال بالأظهر والأوضح، وسواء كان ذلك عائدًا على القوم أنفسهم قُوَّةً وطولًا، كما قال الحسن، أو

ما صنعوه من دورٍ وبناءٍ ومُدُنٍ، كما قال عكرمة فالمرادُ ظاهرٌ.

- فيه: تنبيه النَّفسِ المؤمنةِ على خطورةِ النعمةِ، وهي هنا القوَّةُ البالغةُ التي يسري في النَّفْس بسببها وَهْمُ الاستغناء والانفصال للمخلوقِ عن خالقِه، وهي حالةٌ يحبها الشيطان، لأنَّها لا تُجامع وصفَ العبوديةِ، ولا تجتمع معه في محلٍّ واحدٍ؛ لأن النقيضين لا يجتمعان، قال تعالى:﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العَلَق: ٦ - ٧] فالطغيان عكس الافتقار، والأول باعثه: الاستغناء بالقُوَّةِ ونحوها، والثاني باعثه: العبوديَّةُ والاحتياجُ، وهذا من أعظمِ البناءِ الإيمانيِّ لنفس الإنسانِ؛ لكي تجعلَ الشُّكر قيد النِّعمِ، لا البطر والأشر.

- فيه: تعليم النَّفْس ذمُّ التَّعلُّقِ بالدُّنيا، ومن علاماته: كثرة البُنيان والتَّطاوُل فيه(١)، وكأنَّ الإنسانَ سيخلدُ فيها، وقد جعلها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم من علاماتِ السَّاعةِ في أوقاتِ الفِتَن في حديث جبريل المشهور، وهو داخلٌ في التَّكاثُر الملهي عن الآخرة والاستعداد لها، في قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التَّكَاثُر: ١] وقول النبي صلى الله عليه وسلم وفعلِه وحالِه وحالِ أصحابِه رضي الله عنهم على الضِّدِّ من ذلك؛ لأنَّ نفوسَهم وقلوبَهم لانت للوحيِ؛ فبلغ منها الشِّغاف.

- في السُّورةِ ذمُّ كلِّ مَن اغترَّ بنعمةٍ أعطاها الله إياه نَصًّا في الاغترار بالقُوَّة والسُّلطان والمال، وقياسًا في غيرها، يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: "فقوم عادٍ اغترُّوا بقوَّتهم، وثمودُ اغترُّوا بجنَّاتِهم وعيُونِهم وزروعِهم وبساتينِهم، وقوم فرعون اغترُّوا بالمال والرِّياسة؛ فصارت عاقبتهم إلى ما قصَّ الله علينا، وهذا شأنه دائمًا مع كلِّ مَن اغترَّ بشيءٍ من ذلك، لا بُدَّ أن يُفسدَه عليه ويسلُبَه إياه"(٢).

---

(١) انظر: أحكام القرآن، لابن العربي (٤/٣٩٣).

(٢) التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم (٥٠)، دار عالم الفوائد.

وفي هذا العموم تربيةٌ للنَّفس على الانتباه لأنواعِ النِّعمِ وحقوقِها من الشُّكرِ بالقلبِ واللِّسانِ والجوارحِ.

– فيه: تصحيحٌ لمعاييرَ مادِّيةٍ شائعةٍ بين الناسِ اليوم بِفِعلِ عدوِّهم؛ وهي دعوى الاطِّرادِ بين التَّقدُّمِ المادِّيّ والتَّقدُّمِ الدِّينيّ، فالقرآن في سَوْقه لهذه القصصِ للأممِ الغابرةِ يُوضِح للنَّفسِ المؤمنةِ أنَّه لا تلازُمَ البتَّة بين التَّقدُّمِ المادِّيّ الذي بلغ فيه عادٌ وثمودُ وفرعونُ منتهاه، ومع ذلك فقد بلغوا في التَّسفُّلِ الدِّينيّ والأخلاقيّ الغايةَ، وهذا مُشاهَدٌ اليوم لمن تفكَّر ! فهاهي دول الشَّرق والغرب ممن يُشَار لها بالبنان في مستوى الرَّفاهيَّةِ، ودَخْلِ الفرد تئنُّ من أعلى نِسبِ الانتحارِ، لا نقول بين الشُّيوخ والكهول، بل بين الفتيان والفتيات في مُقتبل العُمر، ممَّا يدلُّ على الفراغ القِيَميّ، والخَواء الرُّوحيّ، ومدى العَدَمِيَّةِ والعَبَثيَّةِ التي أسَّسوا عليها مفاهيمَهم ومبادئَهم، وأنَّه بغير الوَحي المعصوم لا نجاةَ ولا فلاحَ في الدَّارَين، فمِن مَهامّ القرآنِ العظيمِ: تصحيحُ معاييرِ النَّفْس وبنائِها بناءً صحيحًا قويًّا مُتماسكًا على أسسٍ قيِّمةٍ، ودعائمَ صلبةٍ قائمةٍ على الوَحي المعصوم.

– قوله تعالى: ﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ﴾ [الفَجْر: ٩]

فيه: حُسن تربيةِ النَّفْسِ على التَّعامُل مع اللَّفْظ القرآنِيّ، ودُربتها على اختلاف كُنْهِ اللَّفْظ، وأثرُ ذلك على المعنى، فربُّ العِزَّةِ والجلال وصفَ قومَ ثمود بالجَوْب ولم يصفْهم بالنَّحت؛ لما في الأوَّلِ من معنى الخرق(١)، وما يدلُّ عليه من سهولةٍ وقُوَّةٍ، بخلاف النَّحْتِ وما فيه من مُعاناةٍ وشِدَّةٍ.

– وفيه كذلك: بناءٌ وُجدانيٌّ للنَّفس، ببيان وجهِ تَميُّزِهم وفَخْرِهم، وكيف ألان الله لهم الصَّخر على هذا النَّحوِ العجيب، وهو نافعٌ جدًّا في أثر المعنى، وعظيمِ وَقْعِه بعد ذلك في الإهلاكِ، فكُلَّما زادت قُوَّتُهم واغترارُهم كان ذلك أدَلَّ على

(١) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس (١/٤٩١).

عظيم بطشِ الله بالمغترّين، وقَهرِه لهم، ووُقُوعِ الحساب والإياب لا محالةَ في يوم تشخَصُ فيه الأبصارُ ذليلةً بعدما تكبَّرت وعتَت في الدُّنيا.

– وقوله: ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴾ [الفَجر: ١٠]

في إضافةِ الأوتادِ لفرعون بيانٌ لكَونِها مَعلمًا ظاهرًا عُرِف به، واشتُهِر أمرُه، وعلى كافَّةِ الأقوالِ الواردةِ في المرادِ بالأوتادِ، فهي تشيرُ إلى القُوَّةِ إن أُرِيد بها الجُند، والبَطشِ إن أُرِيدَ به أدواتُ التَّعذيبِ والنَّكال، وتمام التَّرفِ والنِّعمةِ إن أُرِيدَ بها كثرةُ البُنيان والنَّخيلِ والزُّروعِ(١). وكلُّها تجتمع في أمرٍ واحدٍ لا يُخطئه عاقلٌ متأمِّلٌ، وهو كِبْرٌ بالغٌ، وفَخْرٌ عاصفٌ؛ باعثه: ثباتُ المِلْكِ، وكثرةُ الجُندِ، وقُوَّةُ البُنيانِ، وعظيمُ النِّعمةِ، كلُّ ذلك آلَ بصاحبِه للظَّنِّ بأمرٍ عظيمٍ، وهو تَسنُّمُ مَقامِ الرُّبوبيَّةِ، وهذا نصَّ عليه رَبُّ العِزَّةِ والجلال في كتابه في قَوْلَةِ فرعونَ الآثمةِ: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النَّازِعَات: ٢٤] وقوله: ﴿ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ﴾ [الزُّخْرُف: ٥١] وهي خاصَّةٌ بالعُتُوِّ والطُّغيانِ ومُجاوَزةِ الحَدِّ، وأثره في بناء النَّفس ظاهرٌ في تربيتها على أمرٍ عظيمٍ، وهو كَوْن النِّعمةِ ابتلاءً جسيمًا قد يؤول بالمرء إلى كُفرِها، بل وجحد المنعِم بها، وكلُّ ذلك لشدَّةِ التَّعلُّقِ بالنِّعمةِ دون المنعِم، وأنَّ واجبَ النَّفس دومًا عدمُ الانشغالِ بالنعمةِ، والتَّعلُّقِ بها عن المنعِم، والتَّعلُّقُ به سبحانه بالتَّبتُّل، فالنِّعمةُ مع النَّفْسِ الكريمةِ كالقَطْرِ والزَّرعِ في أرضٍ طيِّبةٍ تشكرُ لصاحبها، وتُثمرُ ذُلًّا وانكسارًا، وهي مع النَّفْسِ الخبيثة كالأرضِ الجُرُزِ لا تُثمرُ شيئًا، بل تبلع وهي كفورٌ كنودٌ.

– وفيه: ضَعفُ النَّفسِ، وأنَّها سريعةُ التَّأثُّرِ؛ لجهلِها وظُلْمها، فالأجدرُ بها والأسلمُ لها: عدمُ الحِرْصِ على الملكِ والمنصِبِ والجاهِ والثَّراء الفاحش؛ لأنَّه يُفضي غالبًا إلى عُتُوٍّ وطُغيانٍ تسوء عُقباه في الدَّارَيْن.

---

(١) النكت والعيون، للماوردي (٦/٢٦٩).

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [الفَجر : ١١]

ـ تربيةٌ للنَّفس المُتدبِّرةِ على وطيد الصِّلةِ بين الطُّغيانِ وتَجاوُزِ الحدِّ والفسادِ، وهو شاملٌ لفساد الدُّنيا والدِّينِ؛ فالطَّاغِي تجاوَزَ حَدَّ العُبوديَّةِ، فلم يقُم بأمرِ الله من العَدْلِ وضَبْطِ رَغَباتِ النَّفْسِ وتطلُّعاتِها وشَرَهِها بالدُّنيا، الحاملِ لها على التَّعدِّي على حقِّ الغَيْرِ وظُلمِه بأَخْذِهِ قَهْرًا أو غشًّا أو خداعًا؛ وبهذا يحصلُ الفسادُ العريضُ، وهو ناشئٌ عن خللٍ وفسادٍ في علاقةِ العَبْدِ برَبِّه؛ لضعفِ إيمانِه ويقينِه، وجهلِه بمعاني أسماءِ الله وصفاتِه المُفضيةِ للمُراقبةِ؛ كالحسيبِ والرَّقيبِ والشَّهيدِ، وعدمِ تحقُّقِها وترسُّخِها في نفسِه، فمجرَّدُ العِلْمِ بالشَّيءِ شيءٌ، وترسُّخُه في النَّفْسِ المُثمرُ للعملِ والانقيادِ شيءٌ آخر.

ـ وفيه: أهمِّيَّةُ إصلاحِ الخَلَلِ العَقَديِّ؛ لعظيمِ أَثَرِه في الجانبِ السُّلُوكيِّ والأخلاقيِّ والاجتماعيِّ.

ـ فيه كذلك: أنَّ من عُيُوبِ النَّفسِ سُرعةَ تأثُّرِها بمَن حولَها من الأفرادِ والمُجتمعاتِ، فهي سريعة المُحاكاةِ إن لم تكن لها معاييرُ تُسوِّغُ لها الثَّباتَ، وقِيَمٌ تشدُّ أزرَها على الصَّلاح والإصلاحِ؛ فالنَّفْسُ الأمَّارةُ تَؤزُّ صاحبَها أزًّا بذريعةِ انتشارِ الفسادِ؛ لكي يكونَ صاحبُها إمَّعةً؛ إن أساءَ النَّاسُ أساءت؛ فتجعلُ مِن فسادِ الكُبراء والملإِ ذريعةً وحُجَّةً لمن دُونَهم، فينبغي التَّنبُّهُ لذلك.

وصفوةُ القول: أنَّ الطُّغيانَ فسادٌ في العلاقةِ بين الخالقِ والمخلوقِ وذلك له أثرُهُ على فسادِ العلاقةِ بين المخلوقين، بتجاوُزِ الحُقُوقِ؛ فمَن قصَّرَ في حقِّ خالقِه لا يرفع رأسًا بحقِّ مخلوقٍ مثلِه، ومن أهمِّ ما يساعدُ على بناء النَّفْسِ السَّويَّةِ: إيقافُ النَّفْسِ على علاقةِ الطُّغيانِ بالفسادِ العامِ، وقُوَّةِ أثرِ المُحاكاةِ، والتَّأثُّرِ بالبيئةِ؛ لتحذرَ ذلك بمنظومةٍ عاصمةٍ بإذن الله من القِيَمِ والمبادئِ الشَّرعيَّةِ، لا شرقيَّةٍ ولاغربيَّةٍ.

ـ وفي عطفِ جملةِ ﴿فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ﴾ [الفَجر : ١٢]

بالفاء ما يدل على التَّعقيبِ والسُّرعةِ "وطيد الصِّلةِ بين الطُّغيانِ بتجاوُزِ الحدِّ والفسادِ، يؤكِّده حرفُ الفاءِ الذي يدلُّ على التَّعقيبِ والسُّرعةِ والمُلاحقةِ بين الطُّغيانِ والفسادِ بلا مُهلةٍ، وهذا فيه إشارةٌ إلى الإصرارِ، ثم مجيء حرف الوعاء (في) في قوله: "في البلاد" دالٌّ على الاستشراء والعُمومِ للفسادِ والطُّغيان في جميعِ بلادِهم"(١).

ـ قوله: ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ﴾ [الفَجر : ١٣] فيه: ترهيبٌ بالغٌ للنَّفْسِ، ودِقَّةُ وَصْفِ كيفيَّةِ وُقُوعِ العذابِ أوَّلًا بالفاء التي تدلُّ على السُّرعةِ والتَّعقيب(٢)، ثمَّ الصَّبِّ الدَّالِّ على الوَفْرةِ(٣) والإحاطةِ والسُّرعةِ والكثرةِ. وهو واقعٌ في الأُممِ الثَّلاثةِ المذكورةِ، وكان عذابهم مُفاجئًا مُهلِكًا قاضيًا(٤).

ـ وقوله: ﴿رَبُّكَ﴾ [الفَجر : ١٣] فيه: تذكيرٌ للنَّفْسِ بأنَّ ربِّ عادٍ وثمود وفرعون هو ربُّ محمَّدٍ، وهو ربُّ كُلِّ مُتَّبعٍ له على ملَّتِه، فكما أهلكَ الأقوامَ الأُوَلَ هو قادرٌ على إهلاكِ أعداءِ محمدٍ(٥) صلى الله عليه وسلم وأعداءِ أتباعه إلى آخر الزَّمان.

ـ وفي قوله: ﴿سَوۡطَ عَذَابٍ﴾ [الفَجر : ١٣] أي: عذابًا أليمًا، كالسَّوطِ في سرعةِ إصابتِه(٦)، وقُوَّةِ ألمِه، وهو مع ذلك لا يُقارَنُ بعذابِ الآخرةِ، كما رُوِي عن الحسنِ: أنَّ عند الله أسواطًا كثيرةً، فأخذهم بسَوْطٍ منها(٧).

---

(١) حركة المعنى في سورة الفجر، للهدهد (٥٦) بتصرف.

(٢) انظر: مغني اللبيب، لابن هشام (١٨٤/١)، العصرية، ١٤٢٢.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٠٢/١٨).

(٤) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣٢٢/٣٠).

(٥) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣١٧/٣٠).

(٦) التحرير والتنوير (٣٢٢/٣٠) بتصرف.

(٧) انظر: الكشاف، للزمخشري (٧٤٨/٤).

ـ وفي تفصيلِ معالمِ قُوَّتِهم مع بيانِ سُهُولةِ وقُوَّةِ أَخْذِهم بيانٌ لمدى قُدرةِ الله وقُوَّتِه، وضَعفِ المخلوقِ وضَعَتِه؛ ممَّا يبعث في النَّفْسِ التَّألُّهَ للهِ العظيمِ ذي الجلالِ والاكرامِ، ومِن أهمِّ ما تستقيمُ به النَّفْسُ معرفةُ قَدْرِها حقًّا، ومعرفةُ قَدْرَ ربِّها صِدْقًا.

ـ قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفَجْر : ١٤] هو جوابُ القَسَمِ كما جزم به ابنُ مسعودٍ(١) رضي الله عنه، وفي طول الاعتراضِ بين القَسَمِ وجوابِه "ما يُهيِّئُ الذِّهْنَ للجوابِ فيقعُ في النَّفْسِ مؤكَّدًا أكملَ توكيدٍ وأحسنَه"(٢).

ـ وفيه: ترهيبٌ وترغيبٌ للنَّفْسِ بأنَّ الله مُراقبٌ لأعمالِ كُلِّ طاغيةٍ مُفسدٍ، فهو سبحانه شهيدٌ رقيبٌ حسيبٌ حفيظٌ، ولازمُهُ الجزاءُ والحسابُ في يومٍ عظيمٍ، يومَ يقومُ النَّاسُ لرَبِّ العالمين، قال ابن عباس رضي الله عنهما: "يرى ويسمع معها"(٣)، والمراد: أنَّه "لا مَلْجَأَ ولا مهربَ من الله إلَّا إليه"(٤).

ـ فيه: تنبيهٌ للنَّفْسِ على عظيمِ قُدرةِ اللهِ من جهةِ أنَ هؤلاءِ الأقوامِ وما كانوا فيه من حُصُونٍ عظيمةٍ، تُحصِّنُهم من عَدوِّهم من جبالٍ وكهوفٍ وقُصُورٍ وحُصُونٍ، إلَّا أنَّ اللهَ أهلَكَهم بألطفِ الأسبابِ وأخفِّها كالرِّيحِ التي هي هواءٌ، إذا شاء الله جعلَه نافعًا لطيفًا، وإذا شاء جعله عذابًا أليمًا، وكذلك الصَّيحةُ صوت أي: هواءٌ، وهو من ألطفِ الأشياء كذلك، فأهلكَ اللهُ عزَّ وجلَّ هؤلاء بألطفِ جُندِه وأخفِّهم ممَّا فيه بيانٌ لقُوَّةِ الله عزَّ وجلَّ، وعظيمِ عبرةِ الله عزَّ وجلَّ فيهم، حتَّى لا يغترَّ مُغترٌّ بعدَ ذلك قطّ

---

(١) انظر: الدر المنثور، للسيوطي (٥٠٤/٨)أ

(٢) حركة المعنى في سورة الفجر، للهدهد (٤٤).

(٣) جامع البيان، للطبري (٣٧٥/٢٤) دار حجر.

(٤) انظر: بصائر ذوي التمييز، للفيروز آبادي (٧٦/٣).

المبحث الثَّالث: الهداياتُ القُرآنيَّةُ في بناءِ النَّفْسِ الإنسانيَّةِ المُتعلِّقةُ بتصحيح المعايير.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ﴾[الفجر: ١٥ - ١٧] بعد أن بيَّنَ اللهُ عزَّ وجلَّ مصارعَ الأقوامِ الهالكةِ، وما كانوا فيه من مَنَعَةٍ ونِعمةٍ، وما آلَ إليه أمرُهم قرَّرَ في هذه الآياتِ بيانَ شُبهةٍ وردِّها بما سبق من الأمثلةِ بِذِكْرِ قصصِ الأُممِ، فبيَّن بوضوحٍ أن لا علاقةَ بين الرِّزق الدُّنيويِّ بكلِّ أنواعِه، والمنزلةِ عند الله العظيمِ "وأن سَعة الرِّزقِ قد تكونُ إملاءً واستدراجًا، وضِيقَ الرِّزقِ حمايةً وصيانةً من وَجْهٍ، ومن جِهَةٍ أخرى لأهل الدِّين لذُنُوبٍ سَلَفَت"(١) فليس الأمرُ كما يظُنُّ أكثرُ بنو الإنسانِ من الكافرين والمنافقين وبعض المؤمنين الجاهلين، بل الله عز وجل يقول: "قد أبتلي بنعمتي، وأُنعمُ ببلائي"(٢)، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[الأنبياء: ٣٥]

ـ وفيه: تحذيرٌ للنَّفْسِ من حالَيْن خبيثَيْن:

الحالُ الأوَّلُ: حالُ الزَّهْوِ والفَخْرِ والعُجْبِ النَّاشئُ عن تتابُعِ نِعَمِ الله الدُّنيويَّةِ الظَّاهرةِ من مَطعَمٍ ومَلْبسٍ ومَسْكَنٍ، ممَّا يكونُ سبيلًا عظيمًا لإبليسَ وجُندِه؛ لإغواءِ هذه النَّفْسِ بظَنٍّ خاطئٍ أنَّها تستحقُّ ذلك بمنزلتِها عند اللهِ، ولمحبَّةِ الله لها؛ ولهذا زاد لها من زُخرفِ الدُّنيا ومتاعِها الزَّائلِ، وهذا الظَّنُّ الفاسدِ لا يكون إلا مع نقْصٍ بالغٍ في الدِّينِ، وجهلٍ بحِكمة ربِّ العالمين وَوَحْيِه؛ من تلاوةِ كتابِه وتَدَبُّرِه، والفقهِ في سُنَّةِ نبيِّه المعصُومِ صلوات ربِّي وسلامه عليه،

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (١٦/٥٣) بتصرف.

(٢) عدة الصابرين، لابن القيم (١٦٠).

والذي هو أعظمُ الرِّزقِ في الحقيقةِ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من يُرِدِ الله به خيرًا يُفقهّه في الدِّين"، وهذا الذي نال منه محمدٌ صلى الله عليه وسلم وصحبُه رضي الله عنهم النَّصيبَ الأوْفى، وأمَّا الدُّنيا فقد بيَّنَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم مِقْدارَ الغنى فيها، فقال صلى الله عليه وسلم: "ليسَ الغِنى بكثرةِ العَرَضِ، وإنَّما الغنى غنى النَّفْسِ" (١).

الحال الثَّاني: حالٌ تعتري النَّفْسَ الغافلةَ المُتعلِّقةَ بالدُّنيا تؤول بها لسُوءِ الظَّنِّ بربِّها؛ لانحرافٍ بالغٍ في الوُقُوفِ على مِقدارِ حِكمتِه وعِلْمِه وعَدْلِه، يجنحُ بها للتَّسخُّطِ والجَزَعِ وعدمِ الرِّضا بالقضاءِ العادلِ، وحَصْرِ الرِّزقِ في نَوْعٍ واحدٍ فقط؛ وهو المالُ، وقد غفلَ عن أنواعٍ من الرِّزْقِ عليه تترى، وهي الصِّحَّةُ والعافيةُ والزَّوجةُ الصَّالحةُ والولدُ البارُّ وغيرُها، ووظيفةُ الشَّيطانِ تذكيرُ بني الإنسانِ بما ليس عنده، وإغفالُه عن كثيرٍ ممَّا عنده، ووظيفةُ أهلِ التَّقوى من عبادِ الرحمنِ العكس؛ مِن ذِكْرِ مِقدارِ النِّعمِ الوافرةِ، وشكرِها، وعدمِ التَّطلُّعِ بما لما ليس عنده، والصَّبرِ؛ لِعِلْمِه بل لإيقانِه بِعِلْمِ اللهِ وحِكْمتِه وعَدْلِه.

ـ وفيه: تعليمٌ للنَّفْسِ بالاهتمام، مع التَّقريرِ بِذِكْرِ الشَّواهدِ والوقائع عند البيانِ والإقناعِ، فقد جمعت الآياتُ الكريماتُ بين التَّقريرِ والتَّصحيحِ في بيانِ حقائقِ الأُمُور، وتوضيحِ المعاييرِ، ببيانِ العلاقةِ بين الرِّزقِ الدُّنيويِّ والمنزلةِ عند اللهِ، يعضد ذلك ذكرَ الشَّواهدِ من الأُممِ الغابرةِ التي أعطاها اللهُ من الدُّنيا صُنُوفًا من النِّعمِ، ثمَّ أهلَكها، وبطشَ بها، لهوانِها عليه بالكُفرِ والمعاصي.

ـ فيه: تنبيهٌ للنَّفْسِ أنَّ لكلِّ امتحانٍ النَّتيجةَ، وأنَّ النَّاسَ قسمان: منهم: الرَّابحون الفائزون النَّاجحون في الاختبار، ومنهم الرَّاسبون في هذا الامتحان

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١).

والابتلاء، الخاسرون في الدَّارَيْن، وهذا يجعلُها نَفْسًا مُتأهِّبةً يَقِظةً لا غافلةً لاهيةً؛ لأنَّ الأُمُور بالخواتيمِ، وفيه: إشارةٌ لدعاءِ الله بالفلاح والنَّجاحِ، وأن يختمَ للعبدِ بالصَّالحاتِ، وفيه: تنبيهٌ وتعليمٌ للنَّفْسِ أنَّ اللهَ حكيمٌ عليمٌ عادلٌ لا يفعل شيئًا إلَّا لحكمة المصلحةِ فيه تربو على المفسدةِ، وعليمٌ يعلم بالمحلِّ القابلةِ لفضلِه؛ فيوفِّقها، والمحل غير القابلةِ فيكلُها لنفسِها، وعادلٌ لا يظلمُ مثقالَ ذرَّةٍ، ووفق هذا كُلِّه جرى قضاؤه وقدرُه على عبيدِه في المَنعِ والإعطاءِ والاختبارِ والبلاءِ، ولترضى النَّفْسُ المؤمنةُ بقضاءِ الله وقَدَرِه، وفيه: أنَّ الاطِّلاعَ على حُكمِ اللهِ في خَلْقِه ورزقِه وتدبيرِه، لا سبيلَ إلى الوقوفِ عليها، ومعرفةِ كُنهِها إلا بالوَحْيِ المعصومِ من كتابٍ وسُنَّةٍ(١)، فلا مجالَ للعقلِ وَحْدَه في معرفتِها، بل قد تغترُّ العقولُ الفاسدةُ بالظَّواهرِ دون البواطنِ، فيعتريها الخطأُ والخطلُ، وهذا الفرقُ بين أهلِ العلم بالوَحْيِ، والجاهلين به المُتهوِّكين فيه.

ـ وفيه: تنبيهٌ للنَّفْسِ، وإرشادٌ، وتعليمٌ إلى النُّفوذ إلى الحقائقِ وما يصاحبُها من حالاتٍ(٢)؛ **فحالةُ التَّرف** غالبًا يُصاحبُها حالاتٌ من الاستغناءِ والكِبْرِ والتَّكاثرِ والتَّلهِّي، **وحالةُ الضِّيق والفقرِ** يُصاحبُها غالبًا أحوالٌ من الذُّلِّ والافتقارِ والانكسارِ والدُّعاءِ والإلحاحِ واللَّهَجِ بالذِّكْرِ والاستغفارِ لأهلِ التَّوفيقِ تكونُ ـ بعون الله ـ سببًا في كشفِ الكُرُوبِ، وتفريجِ الأُمُورِ، واللهُ يُبغضُ أحوالَ أهلِ التَّرفِ والسَّرَف، ويُحبُّ أحوالَ أهلِ الذُّلِّ والانكسارِ له، فالعبرةُ بالحالِ، وعليه المآلُ في الآخرةِ، وليس بزُخرفِ الدُّنيا الزَّائل.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣٠/٣٣١).

(٢) انظر: تفسير ابن باديس (١٦٤).

قوله: ﴿لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾ [الفَجر: ١٧] فيه: تنبيهٌ للنَّفْسِ المؤمنةِ إلى خُطُورةِ كُفرانِ النِّعمةِ، ومُقابلتِها بالإساءةِ، والإتيان بلفظ الإكرام في ﴿لَّا تُكۡرِمُونَ﴾ مع قوله في الآيةِ السَّابقةِ ﴿رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾ تنبيهٌ أنَّهم إن أكرمهم الله فيما توهَّموه من النِّعمة، فهم لم يقابلوا إكرام الله لهم بزعمِهم بإكرامِ اليتيم[١]، ولفظ الإكرام يشمل اليتيمَ الغنيَّ بالإحسانِ والتَّلطُّفِ والمودَّةِ، واليتيمَ الفقيرَ بالمال[٢].

ـ وفيه تربيةٌ للنَّفْسِ على تعظيمِ النَّفْعِ المُتعدِّي، قال الله تعالى: ﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ [القَصَص: ٧٧] من إكرامِ اليتيمِ، وإطعامِ المسكينِ، وهذا من أعظمِ ما تقوى به المُجتمعاتُ وهو من محاسن الدِّين الإسلاميّ.

ـ وفيه: تربيةٌ للنَّفْس على أنَّها جُبلت على حُبِّ المال، حتى لو كان عندها منه الكثير، فإنَّها تبخلُ في إنفاقه على الغيرِ في وُجُوهِ البِرِّ، فهي إمَّا تمسكُه أو تنفقُه على نفسها فقط، وهذا يظهر فيما يأتي من الآيات.

قوله: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ [الفَجر: ١٨] فيه: تنفيرٌ للنَّفسِ ببيان درجةٍ أعلى في الشحِّ، ليس فقط في إنفاقِه، بل كذلك في الحضِّ على إنفاقِه من مال الغيرِ، ولو لم تنفق، وهذا يدل على خُبثِ النَّفْس، وفسادِ الطَّبْع[٣].

ـ وفيه: عدمُ الاكتراثِ بالمسكين ولو بأدنى نفْعٍ، وهو نفْعُ الوَساطة، فمِن باب أَوْلى ألَّا يُعطوهم حقَّهم من المال[٤].

ـ وفي إضافة الطَّعام للمسكين تنبيهٌ وتربيةٌ للنَّفْسِ أنَّه حقٌّ للمسكين في مالِ الغنيِّ بقدر الزَّكاةِ[٥]، وهذا يُثمرُ الحرص على إعطائِه حقّه كاملًا عند وجوبه

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣٣٢/٣٠).

(٢) انظر: شرح رياض الصالحين، للعثيمين (٨٩/٣).

(٣) المصدر نفسه (٨٨/٣).

(٤) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣٣٣/٣٠).

(٥) انظر: نظم الدرر، للبقاعي (٣٥/٢٢).

وعدم الصَّغار من المسكين عند الأخذِ، ولا التَّكبُّر والعُجْب من الغنيِّ عند الإعطاءِ، فيدُه على مال المسكين يدُ امانةٍ، تؤدِّي ما وجب عليها.

ـ وفي تدرُّجِ الآياتِ تربيةٌ عظيمةٌ للنَّفس، وبيان تدرُّجِها في الشَّرهِ بالمال، فمن الأنفسِ ما لا يقوم بالواجب من إخراجِ الزَّكاةِ؛ ومنها: حقُّ اليتيمِ، ثم يَتدرَّجُ به الشُّحُّ؛ حتَّى يشحَّ بالنَّصيحةِ، والأمرُ بالإنفاقِ؛ لشدَّةِ ولهِه وتعلُّقِه بالمال، فيبخلُ حتى بالنُّصحِ، ثم يصل إلى أخبثِ المراتب، وهي أكلُ المالِ الحرام، فتأمَّلْ كيف لعِبَ به الشَّيطانُ أوَّلًا بمَنْعِ الحقِّ الواجبِ، ثمَّ مَنْعِ ما لا يَضرُّه من النَّصيحةِ، وفيها نوْعُ بَذْل، ثُمَّ الاستحواذُ الكاملُ بأكْلِ المال الحرامِ، فينبغي للنَّفْسِ معرفةُ مداخلِ إبليس وخُطواتِه؛ لتحذرها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ [البَقَرَة : ١٦٨] .

ـ وفي قوله: ﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾ [الفَجر : ١٩ - ٢٠] فيه: تبشيعٌ للنَّفْس من هذه الحالةِ، وفي هذا الفعل "تأكلون: فيه: :من الجشَع والطمعِ والنَّهَمِ فيما لا حقَّ لهم فيه، وكلمة "التراث" توحي بأنه مالٌ مات حاميه، ولم يبق له إلَّا صِبيةٌ ونساءٌ، وهم عاجزون عن الذَّبِّ عنه"(١). وكأنَّ القلبَ محلٌّ واحدٌ، لا يجتمعُ فيه النَّهمُ بالمالِ والولعُ به لهذه الدَّرجةِ، والرَّحمةُ بالضَّعيفِ من اليتيمِ والمسكين والنِّساء والصِّبيةِ، وفيه: فسادُ القلبِ والنَّفْسِ إذا زاد تعلُّقُها بالدُّنيا لهذا الحَدِّ، ولا سيَّما المال؛ لأنَّه يتحوَّلُ به الإنسانُ المُكرَّمُ إلى منزلةٍ دنيَّةٍ، قد تربأُ عنها بعض البَهمِ من انعدام الرَّحمةِ بالغيرِ في القلبِ، وتُحوِّلُها لأنانيَّةٍ مُفرطةٍ، وشُحٍّ مُطاعٍ وهوًى مُتَّبَعٍ، بل تجعله يسطو على مالِ الغَيْرِ، بوسائلَ غيرِ مشروعةٍ، من الغشِّ والسرقةِ والظُّلمِ وأكلِ المال بالباطل

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور(٣٣٤/٣٠)

المبحث الرابع: الهداياتُ القُرآنيَّةُ في بناءِ النَّفْسِ الإنسانيَّةِ المُتعلِّقةُ بأحوال النَّاس في الآخرة.

ـ قوله: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [الفَجْر: ٢١]

ـ تتابُعُ الزَّجْرِ بقوله: (كلَّا) لإفاقةِ النَّفْسِ الغافلةِ من غيِّها الذي أوقَعها فيما سبق من الشَّرَهِ والظُّلمِ، وتذكيرِ النَّفْسِ المُؤمنةِ بعاقبةِ الأُمُور، التي لابد منها؛ وهي لقاء الله عزَّ وجلَّ.

ـ فيه: عِظمُ أثرِ التَّذكيرِ بالآخرةِ على سياسةِ النَّفْسِ وأطرِها على الحقِ أطرًا.

ـ وفيه: أنَّه بمقدارِ ما يكون من اليقينِ والإيمان باليوم الآخرِ واستحضاره في عمل اليوم واللَّيلةِ بمقدارِ ما يكونُ من الاجتهادِ في الإقبالِ على الله، ومُراقبتِه؛ ولذا نجد رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقرنُ كثيرًا بين الإيمانِ بالله واليومِ الآخرِ قبل ذكر بعض الأعمالِ، قال صلى الله عليه وسلم: "مَن كانَ يُؤْمِنُ باللَّهِ والْيَومِ الآخِرِ فَلْيُحْسِنْ إلى جارِهِ، ومَن كانَ يُؤْمِنُ باللَّهِ والْيَومِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، ومَن كانَ يُؤْمِنُ باللَّهِ والْيَومِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا، أوْ لِيَسْكُتْ"(١).

ـ فيه: ترويض النَّفْسِ بأمرٍ عظيمٍ ينفي عنها كلَّ تعلُّقٍ فاسدٍ يضرُّها في دينِها ودُنياها؛ ألا وهو: أنَّ كُلَّ ما يطلبُه المرءُ للارتفاع به عن غيره في الدُّنيا من مالٍ وعَقارٍ وزرعٍ وبستانٍ كلُّه زائلٌ في يومٍ عظيمٍ يومَ يقوم النَّاسُ لربِّ العالمين؛ حيث تُدكُّ الأرضُ دكًّا، فلا يبقى عليها شيءٌ مُرتفعٌ، بل يرجع كُلٌّ إلى أصلِه من التَّطامُنِ والذُّلِّ والخُضُوعِ للمَلِكِ الحقِّ، فكُلُّ ما أنفقت فيه عُمُرك ضيَّعت نفسك وشتَّتَّها لتحصيلِه زائلٌ لا محالةَ في ذلك اليوم(٢)،

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).

(٢) انظر: تيسر الكريم الرحمن، للسعدي (٩٢٤).

وهو إيقافٌ للنَّفسِ على حقيقةٍ مُفزعةٍ في للطَّامعِ النَّهِم، مُسلِّيةٍ مُفرحةٍ للقنوع الشَّاكر.

ـ وفيه: تنبيهٌ للنَّفْسِ على أنَّ مُلكَها مُقيَّدٌ لا مُطلقٌ، وأنَّ ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا﴾ [الفُرْقَان : ٢٦] ، فالأرضُ وما عليها بكلِّ ما فيها ومن عليها مُلْكٌ لله، يتصرَّفُ فيهم كيف يشاءُ سبحانه وفْق حِكمتِه وعلمِه وعدلِه، والأرضُ وما عليها ومَن عليها مقهورٌ، لا حولَ له ولا قُوةَ، ولا تَصَرُّفَ له ولا مُلْكَ.

ـ وفي تقييد المُلك أمورٌ نافعةٌ للنَّفْسِ:

أوَّلًا: أنَّ تَصَرُّفَها مُقيَّدٌ في الدُّنيا غيرُ مُطلَقٍ؛ فالمالُ مثلًا مأمورُه أن تأخذَه من حِلِّه فتنفقُهُ في حِلِّه، ولا يجوزُ لها أن تأخذَ مِن حرامٍ، أو أن تُنفقَ في الحرامِ.

ثانيًا: أنَّ مُلكَها على المال مُؤقَّتٌ، فلا تُبالغْ في التَّعلُّقِ به، ولا تطغى فيه؛ لأنَّه إمَّا يتركها هذا المالُ بعارضٍ مِن فَقرٍ أو بلاءٍ، أو تتركه هي، فلا تنتفعُ به لمرضٍ يمنعها من الاستمتاعِ به، أو موتٍ يقطعُها عنه بالكُلِّيَّةِ.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ [الفَجْر : ٢٢]

ـ مَشاهدُ تُلهبُ النَّفْسَ من هَولِ ذلك اليومِ العظيمِ، ومشهدُ مجيء الرَّبِّ جلَّ في عُلاه في موكبٍ عظيمٍ جليلٍ، وإن كان موكبُ الملوك في الدنيا تتأثَّر به النَّفْسُ، فكيف بمَلِك الملوك سبحانه جلَّ في عُلاه.

في قوله: ﴿صَفّٗا صَفّٗا﴾: دليلٌ على كثرةِ عدد الملائكةِ.

ـ وفيه: أثرٌ عظيمٌ لتربية النَّفْسِ، وتهذيبِها لمعرفةِ عظمةِ الرَّبِّ سبحانه، فإن كان الملائكةُ لا يُحصى عددُهم كما ورد في صحيح مسلمٍ في قصَّةِ الإسراءِ "أنَّ البيت المعمور يدخلُه كل يوم

سبعون أَلْفَ مَلَكٍ لا يعودون إليه"(١) فكيف عددهم؟ مع ما ثبت في عظمةِ خلقِهم، وقد صحَّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "أنَّه رأى جبريلَ منهبطًا من السَّماء سادًا عِظَم خَلقِه ما بين السّماء إلى الأرضِ"(٢)، وصحَّ أن له ستمائة جناحٍ(٣)، وورد في صفةِ حملةِ العرشِ أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام.

والإيمانُ بالملائكة له أثرٌ بالغٌ في استقامةِ النَّفسِ وتهذيبِها من وجوهٍ:

أوَّلًا: التَّأمُّلُ في عَظَمةِ الملائكةِ وكثرتِهم التي لا نهايةَ لها، فإن كان هذا جنسٌ واحدٌ من أجناسِ المخلوقاتِ للهِ العظيمِ، فكيف بعظمةِ الرَّبِّ سبحانه، ممَّا يبعث في النَّفْسِ هيبةً وتعظيمًا، تخلعُ القلبَ، وتستصغرُ النَّفْسُ معه كلَّ عملٍ تعمله في ذاتِ الله الكبير العظيم.

ثانيًا: التَّأمُّلُ في كونِهم خَلْقًا مُكرَمين، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وأن تقتدي بهم النفس المؤمنةُ في حُسنِ الامتثالِ والتَّأدُّبِ مع الله، بشكرِه وحسنِ عبادتِه.

ثالثًا: التَّأمُّلُ في حالِ الملائكةِ الكرامِ البررةِ الذين لا يفارقون الإنسانَ، من الحفظةِ الكتَبَةِ، وإن كان المرءُ يستحي في مجلسٍ فيه جمعٌ من العلماء والفضلاء أن يقولَ أو يفعلَ ما يُستحى منه، فكيف بمن معه ملكَان لا يُفارقانه قطّ، لا نقول فقط يسمعون، بل يكتبون ما يقولُ ويفعلُ، فالحياءُ منهم أولى وأولى، ويُورث ذلك النفسَ المراقبةَ لله عزَّ وجلَّ أن تتأدَّبَ النفسُ بأن لا تؤذي

(١) أخرجه مسلم، برقم (١٦٢).

(٢) أخرجه مسلم، برقم (١٧٧).

(٣) أخرجه البخاري، برقم (٤٨٥٦).

أصحابَها من الملائكةِ، لا بقولٍ خبيثٍ أو بفعلٍ بغيضٍ أو رائحةٍ كريهةٍ، بل يحرصون على كُلِّ ما يَزين صحيفتَه يوم القيامةِ، لا ما يشينُه ويُخزيه يوم العَرْضِ الأكبرِ.

قوله: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفَجر: ٢٣]

- فيه: قرعٌ بالغٌ للنَّفْسِ الغافلةِ، وتذكيرٌ للنَّفسِ المؤمنةِ بحديث المصطفى الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى "يؤتَى بجهنمَ يومئذٍ لها سبعون ألف زمامٍ، مع كُلِّ زمامٍ سبعون ألف مَلَكٍ يجرُّونها"(١)، وفي هذا المشهدِ من الأوصافِ البالغةِ التَّأثيرِ في النَّفْسِ المُتأمِّلةِ من عِظَمِ خَلْقِ النَّارِ - أعاذنا الله منها - ومِنَ التَّرهيبِ مِن جهنَّمَ ببيانِ هولِ صفاتِها، حتى يرتدعَ النَّاسُ منها، وكذلك، أي: الكتبُ التي فصَّلت في بيان طرفٍ منها قوله تعالى: تكاد تميز من الغيظ.

يقول السعدي رحمه الله: "تكاد على اجتماعِها أن يُفارقَ بعضُها بعضًا، وتتقطَّع مِن شِدَّةِ غَيْظِها على الكفَّار، فما ظنُّك ما تفعل بهم اذا حصلوا فيها؟"(٢)، وهذا يُورثُ في النَّفْسِ:

أوَّلًا: الخوفَ والرَّهبةَ والحرصَ على الاستعدادِ لهذا اليوم الذي فيه مَلكٌ مالكٌ جبَّارٌ حكيمٌ.

ثانيًا: فيه بيانٌ لرحمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ حيث فصَّلَ لعبادِه وصفَ النَّارِ وصِفَتِها؛ لترعوي النُّفُوسُ المؤمنةُ وتتذكَّرُ الغافلةُ؛ فيكونُ ذلك رادعًا عن مسِّ عذابها الأليمِ.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٢٨٤٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (٨٧٥).

وقوله: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾

ـ مشهدٌ مُخيفٌ أليمٌ يقطرُ ندمًا وحَسْرةً بحال الكافرين المُعرضين والمنافقين الذين بلغت الدُّنيا من قلوبهم الشّغافَ، وهم يتحسَّفون عند مُعاينةِ جهنَّمَ، وهي تُعالج الملائكةُ، ولها صوتٌ مُخيفٌ تتشوَّفُ لمن يُلقى فيها حينئذٍ، فيُفيقُ الغافلُ من غفلتِه، ويعلم الطامعُ في الدُّنيا أنَّ طمعه لم يزِدْه شيئًا مما كُتِبَ له، وفي هذه الحسرةُ بيان أنَّ النَّفْسَ لها قُدرةٌ واختيارٌ على العملِ الصَّالحِ(١)، فهي التي تصلّي وتصوم، أو تعصي وتفسد؛ ممَّا يحملُها على الجِدِّ والاجتهاد في طاعةِ الله، وتركِ الكسلِ، والتَّأخُّرِ؛ لأنَّ فُرصةَ العملِ مُعلَّقةٌ بالحياةِ، والحياةُ يُمكنُ أن تنتهي في ايِّ لحظةٍ، كما قال عليٌّ رضي الله عنه: "فارتحلت الدُّنيا مُدبرةً، وارتحلت الآخرةُ مُقبلةً، ولكلِّ واحدةٍ منها بنون، فكونوا من أبناء الآخرةِ، ولا تكونوا من أبناء الدُّنيا، فإن اليوم عملٌ ولا حساب، وغدًا حسابٌ ولا عمل"(٢).

قوله: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾ [الفَجر: ٢٤]

ـ فيه بيانٌ عظيمٌ للنَّفْسِ ينفع في بنائها عند تأمُّلِ اللَّفظِ القُرآنيِّ المُعجزِ، بوصف الحياةِ الآخرةِ بالحياةِ، بخلاف الحياةِ الدُّنيا فهي ليست حياةً؛ لأنَّ كُلَّ صفوِها كدرٌ، وهي غيرُ باقيةٍ قد تزول في أيِّ لحظةٍ بالموت أو تسأمُ فيها بالمرض الطَّويل(٣)؛ وبه يُعلمُ أنَّ "الحياةَ التي يُسعى في أصلِها وكمالِها، وتتميمِ

(١) الكشاف، للزمخشري (٧٥٢/٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، باب في الأمل وطوله (٨٩/٨).

(٣) انظر: تفسير العثيمين، سورة العنكبوت (٣٩٢).

لَذَّاتِها هي الحياةُ الآخرةُ"(١)، كما قال مؤمن آل فرعون رحمه الله: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غَافِر: ٣٩].

فالنَّفْسُ إن علمت أنَّ مثلَها في هذه الدنيا كمِثْلِ المُسافرِ يُوشِكُ أن تنتهيَ رحلتُه؛ فإنَّه يتخفَّفُ ممَّا يُثقله في حال السَّفَرِ، ولا يأخذُ معه إلَّا ما ينفعُه "عِشْ في الدُّنيا كأنَّك غريبٌ أو عابرُ سبيلٍ"(٢) كما صَحَّ الخبرُ عن سَيِّدِ البَشَرِ صلوات ربِّي وسلامه عليه.

ـ وفيه: قِصَرُ هذه الرِّحلة، وعدمُ التَّعلُّقِ بها؛ لقِصَرِها مُقارَنةً بِدارِ البرزخِ، والتي على طولها فهي زيارةٌ كذلك، قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التَّكَاثُر: ١ - ٢] ثُمَّ بعد هذه الزِّيارةِ يُنتقل لدارِ البقاءِ؛ وهي الدَّارُ الآخرةُ، وهذا البيانُ من أعظمِ ما تعالَجَ به النَّفْسُ من حيثُ نشاطُها ويَقَظتُها.

قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٦﴾ [الفَجر: ٢٥ - ٢٦]

فيها قراءتان:

– (لا يعذَّب ولا يُوثَق) بفتح الذَّال والثَّاء؛ أي: لا يُعذَّب أحدٌ مثل عذاب هذا الصِّنف من الناس، وكذا لا يُوثَق وثاقه أحدٌ(٣)، وهذا فيه ترهيبٌ عظيمٌ للنَّفْسِ من جهةِ بلوغِ العذابِ للغايةِ القُصوى.

– وقراءة (لا يعذِّب ولا يوثِق) بكسرِ الذَّال والثَّاء؛ قيل المعنى: لا يُعذِّب أحدٌ في الدنيا مثل عذاب الله في الآخرةِ ولا يوثِق أحدٌ مثل وثاق الله لأهلِ النار، وقيل: لا يتولى يوم القيامةِ عذابَ الله أحدٌ غيره. فالملك له وحده، وملائكةُ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (٩٢٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٦٤١٦).

(٣) انظر: معاني القراءات، للأزهري (٣/١٤٥).

العذاب يأتمرون بأمره في تعذيب الكافرين، وأَسْرهم في القيود(١)، وهذا فيه تفرُّدِ الملكِ القهَّار العزيز الجبَّارِ في العقابِ والنَّكالِ على نحوٍ لا يقاربُه شيءٌ من نَكَالِ الدُّنيا وعقابِه، وهو ممَّا تتصدَّعُ له النُّفُوسُ السَّويَّةُ، والعُقُولُ الرَّاجحةُ؛ فيُورثُها رهبةً وخوفًا إن تركت، وفرحًا وسُرورًا بالنَّجاةِ منه إن عملت وجَدَّت.

قوله: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ الفجر:٢٧: خطاب بالبشارةِ بعد النَّذارةِ، وفيه تعليمٌ وبيانٌ للمُربِّين والدُّعاةِ والوُعَّاظِ أنَّ طريقةَ القرآنِ في التَّأثيرِ والإصلاحِ للنَّفْسِ الإنسانيَّةِ إنَّما يكون بالمَزجِ بين البشارةِ والنَّذَارةِ على نحوٍ مُتوازنٍ؛ لأنَّ الأمرَ في ذلك كما قال طبيبُ القلوبِ ابنُ القيِّم ـ رحمه الله ـ: "القلبُ في سَيرِه إلى اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ بمنزلةِ الطَّائرِ؛ فالمحبَّةُ رأسُه، والخوفُ والرَّجاءُ جناحاه، فمتى سَلِمَ الرَّأسُ والجناحان فالطَّائرُ جيِّدُ الطَّيَران، ومتى قُطِعَ الرَّأسُ ماتَ الطَّائرُ، ومتى فُقِدَ الجناحان فهو عُرضةٌ لكُلِّ صائدٍ وكاسرٍ، ولكنَّ السَّلَفَ استحبُّوا أن يُقوِّيَ في الصِّحَّةِ جناحَ الخوفِ على جناحِ الرَّجاءِ، وعند الخرُوجِ من الدُّنيا يُقوِّي جناحَ الرَّجاءِ على جناحِ الخوفِ.

قيل أنَّ ذلك يُقالُ ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ إمَّا عند الموت، أو عند البعثِ، أو عند دخولِ الجنَّةِ، وبكُلٍّ قال جماعةٌ من المُفسِّرين، وهي بِشارةٌ عظيمةٌ وقد تتكرَّرُ لاستحباب تكرارِ التَّبشيرِ وما يصحبه من فرحٍ وسُرُورٍ وسعادةٍ وحبورٍ، وهذه اللَّحظةُ العظيمةُ التي تطمحُ لها النُّفُوسُ العاقلةُ الرَّشيدةُ المُوفَّقةُ السَّعيدةُ هي لحظةُ الظَّفَرِ بموعودِ الله الذي عبدَتْه بالغيبِ، وخافته بالغيبِ، ورَجَتْ ما عنده بالغيبِ، ودَعَتْه بالغيبِ، وامنت به وبما وعد بالغيبِ، وهي لحظاتٌ خالدةٌ سطَّرَ القرآنُ الكريمُ بعضَها كلَّ لحظة؛ يعقوبُ ـ عليه

(١) انظر: معاني القراءات، للأزهري (٣/١٤٥)، والوسيط، للواحدي (٤/٤٨٦).

السلام ـ لمَّا قال لبنيه لمَّا بشَّروه بقميصِ يوسف: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ يوسف:٩٦، أي: أعبدُ ربِّي وأُحسِنُ الظَّنَّ به؛ لأنِّي أعلمُ صفاتِ ربِّي الحفيظِ العليمِ الجوادِ الكريمِ، يحفظُ أولياءَه ويُوفِّقُهم ويجودُ عليهم، ويكرمُهم، ويُوفِّقُهم للعملِ الصالحِ والتَّوبةِ النَّصُوحِ، ويقبلُها منهم تفضُّلًا وتَكَرُّمًا.

نُفوسٌ عرفت ربَّها فخضعت وتطامنت واطمئنَّت في الدُّنيا وفي البرزخ ويوم القيامةِ؛ هذه البشارةُ تؤثِّرُ في النَّفْسِ ترغيبًا وتطلُّعًا للنُّفُوسِ السَّويَّةِ أن تنالَ هذا المنالَ العظيمَ، وأن تبلغَ هذه المنزلةَ العاليةَ الشَّريفةَ عند الله.

قوله: ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾ الفجر: ٢٨

لمَّا كانت حياةُ المؤمنِ فيها الكَبَدُ، ولكونِ النَّار حُفَّتْ بالشَّهواتِ، والجنَّة حُفَّت بالمكارهِ، وكانت النَّفْسُ المُجاهدةُ الصَّابرةُ تراقبُ ربَّها وتحاسبُه وتتبَّعُ مواقعَ رضاه، وتجتنبُ مواقعَ سخطه كانت في شوقٍ عظيمٍ للقاء ربِّها الذي تعبدُه وتراقبُه، وتطلبُ ما عنده من عظيمِ الأجرِ والثَّوابِ؛ ربُّها الذي ثبَّتها في المِحَنِ ووفَّقها لكُلِّ خيرٍ، ودفع عنها كل شَرٍّ، كان أسمى ما عندها أن تتحصَّل لها ولايةُ اللهِ الودودِ الرَّحيمِ اللَّطيفِ الذي يتولَّاها وهي في سياقة الموت تكريمًا وتشريفًا، فيُرسلُ لها من يُبشِّرُها ويُهوِّن عليها سكراتِه بقولهم الخالد:﴿ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ٣١ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ﴾ فصلت:٣٠-٣٢ فتسيلُ الرُّوحُ كما تسيلُ القطرةُ مِن فِيِّ السِّقاء، وهذه أوَّلُ البشائرِ التي تتبع بعضَها بعضًا، وفي تفصيل هذه المشاهدِ والوعود في الكتاب والسُّنَّة مِن أعظمِ وأقوى ما يحثُّ النَّفسَ على العمل الصالحِ والاجتهادِ لبلوغ ولايةِ الله الجالبةِ لرضاه سبحانه.

فالنَّفْسُ التي كانت مطمئنَّةً في الدُّنيا بذِكرِ اللهِ، وحُسنِ الظَّنِّ به تكون مطمئنَّةً عند قبضِ الرُّوحِ، وكذلك في البرزخِ ويوم العرضِ الأكبرِ؛ لأنَّها كانت راضيةً عن ربِّها في أسمائه وصفاته وأفعاله وقضائه وقدره، فرضيَ الله ـ عز وجل ـ عن عقيدتِها ومنهاجِها وأخلاقِها وعبادتِها تفضُّلًا وتكرُّمًا، فأرضاها بالدَّرجاتِ العُلى في الجنَّةِ، وعلى رأسِ هؤلاءِ الرُّسلُ والأنبياءُ والصَّحبُ الكِرَامُ ـ رضي الله عنهم ـ بل ورد أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بَشَّرَ أبا بكرٍ بأنَّه سيقال له ذلك: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾ عند الموتِ، فإذا علمت النَّفْسُ أنَّها تعبدُ ربًّا شكورًا جوادًا كريمًا، يقول في كتابه: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ الرحمن: ٦٠ ،زادها ذلك حُسنًا إلى حُسنٍ، ورضًى إلى رضًى؛ ولذا قال الله عنهم: ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ يونس: ٦٢-٦٣ وفي قوله: ٱرۡجِعِيٓ إشارةٌ إلى المنازلِ الأولى التي ذكرها ابن القيّم ـ رحمه الله ـ في ميميَّته:

فحيّ على جناتِ عدْنٍ فإنَّها ... منازلنا الأولى وفيها المخيم

ولكننا سبي العدو فهل ترى ... نعود إلى أوطاننا ونـــسلم

وفي قوله:﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ الفجر: ٢٩-٣٠ بُشرى للنَّفْس الطَّائعةِ الخاضعةِ أن تبلُغَ منازلَ الصَّالحين العابدين المُخبتين؛ حيث شرُفت بأمرَين عظيمَين تكريمًا لهم: وَصْفُ العُبُوديَّة وما أشرَفَه! في قوله: "عبادي" والإضافة لربِّ العليِّ ،وما أعظمها من منزلةٍ! ثمَّ دخول جنَّةَ عدنٍ التي فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلبِ بشرٍ، فما أجمل هذا الدِّين العظيم! الذي أرسلَ هذا الرَّسولَ الكريمَ بهذا الكلامِ المُبينِ؛ **ليُخرجَ النَّاسَ من الظُّلماتِ إلى النُّور بإذنه، ويهديهم إلى صراطٍ مُستقيمٍ.**

الخاتمة:

ضمَّت هذه السورةُ العظيمةُ في خاتمتِها بشارةً لأهلِ النُّفُوسِ المُطمئنَّةِ التي سُكبت عليها السَّكينةُ؛ على أهل صلاةِ الفجرِ، أهلِ الطَّاعاتِ في اللَّيالي العشر، أهلِ الشَّفع والوتر، أهلِ اللَّيلِ الذين سروا فيه بالطَّاعاتِ إلى ربِّهم، لم يقفوا عند الأسبابِ التي وقف عندها غيرهم؛ كعادٍ وثمود وفرعون، بل اعتمدوا وتوكَّلوا ووثقوا بربِّ الأربابِ وحده ـ جلَّ في عُلاه ـ فلم يظنُّوا كما ظنَّ غيرُهم أنَّ معيارَ الكرامةِ في الدُّنيا هو الأسبابُ المادِّيَّةُ من مالٍ وبنينَ وقُصُورٍ وزُروع، وأنَّ فَقْدَها علامةُ المهانةِ، بل علموا أنَّ الرِّزقَ الدِّينيَّ من تُقًى وصلاحٍ وتألُّهٍ وفلاحٍ خيرٌ من الدُّنيا وما فيها، ولم تمتلئ قلوبُهم بحبِّ المالِ حتى أنستْهم ذكرَ الله، علموا أنَّ العبدَ قد يكون عبدًا لله أو عبدًا للدِّرهمِ، ممَّا يجعله يمنعُ الحقوقَ الواجبةَ فيه، ثُمَّ يزيدُ الوَلَه به حتى يعجزَ عن أمرِ غيره بالإنفاق، ثمَّ تطغى نفسُه حتى تستبيحَ مالَ الضَّعفَةِ الحرامِ، فالحلال عندهم ما حلَّ في اليد، وأمَّا عبادُ الرَّحمن فكرهوا هذه الحالةَ وعرفوها وحذروها لاستقامةِ أنفسِهم على الصِّراط المُستقيمِ؛ لأنَّهم يؤمنون ويوقنون بيومٍ عظيمٍ تُدَكُّ فيه الأرضُ، ويأتي فيه الرَّبُّ في موكبٍ مهيبٍ، وتُوضعُ فيه الموازينُ القسطَ فتتضِّحُ معاييرُ الكرامةِ والمهانةِ ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ الحجرات: ١٣، وليس أغناكم، يومئذ يعلم الظالمون ما لهم جزاءً وفاقًا، فكما عذَّبوا النَّاسَ يعذبهم الله عذابًا لا يعذبُه أحدًا من العالمين.

واللهَ نسألُ أن يجعلَنا من أهلِ النُّفُوسِ المُطمئنَّةِ،

وأن يرزقَنا حُسنَ الخاتمةِ، إنَّه قريبٌ مُجيبٌ.

أهمُّ النَّتائج:

وبعدَ هذه الرِّحلة في أفياءِ هذه السُّورةِ الكريمةِ نذكرُ أهمَّ النَّتائجِ

١. ثراء السُّورةِ العظيمةِ من جهةِ الاعتناء ببناء النَّفسِ الإنسانيَّةِ عَقَديًّا ومنهجيًّا وسلوكيًّا.

٢. التَّرابُطُ بين مطلعِ السُّورةِ وخاتمتِها بالحديث عن عاقبه النَّفْسِ المُطمئنَّةِ، وقد بدأت السُّورةُ ببيانِ أوقاتِ العبادةِ والطَّاعةِ التي تحصل بها للنَّفْسِ الاطمئنانُ والسَّكينةُ في الآخرةِ والأُولى.

٣. من محاورِ السُّورةِ الرَّئيسةِ: التَّركيزُ على مسألةِ الرُّكونِ للأسبابِ المادِّيةِ والتَّعلُّقِ بها، وهذا من أعظمِ آفاتِ النَّفْسِ في هذه الأزمانِ، فجاءت السُّورةُ بمُعالجةِ ذلك عن طريق التَّقريرِ والتَّنظيرِ الذي يُوضح المعاييرَ الرَّبانيَّةَ السَّماويَّةَ للإكرامِ والإهانة، وإبطالِ المعاييرِ المادِّيةِ الأرضيَّةِ بذلك، وعن طريقِ التَّمثيلِ بِذِكْرِ وقائعَ شاهدة لأممٍ غابرةٍ ركنت إلى المادِّيَّةِ، واعتمدت عليها فلم تغني عنها شيئًا.

٤. بيانُ خُطُورة تعلُّقِ النَّفْسِ بالمالِ، وأنَّه قد يستحوذ على القَلْبِ بالكُلِّيَّةِ حتى يجعلَ صاحبَه عبدًا للدِّرهم والدِّينار بنَصِّ المُصطفى المُختار ـ صلوات ربِّي وسلامه عليه ـ ثُمَّ يتدرَّج به الحالُ بين مَنْعٍ وهات، مَنْعٍ للحُقُوقِ الواجبةِ، وطَلَبٍ للمالِ الحرامِ.

٥. السُّورةُ مُزَاوَجةٌ بين البشارةِ والنَّذارةِ التي تُحرِّكُ النَّفْسَ وتقودُها بالعلمِ النَّافعِ والعمل الصَّالحِ، وذلك من خلالِ توضيحِ مقالاتِ مآلاتِ أهلِ الطُّغيانِ، وما أعدَّ اللهُ لهم من عذابٍ لم يعذِّبُه أحدًا من العالمين، ومآلاتِ أهلِ النُّفُوسِ

المُطمئنَّةِ، وما أعدَّ الله لأهلِ رضوانه من النَّعيمِ المُقيم، خالدين فيه أبدًا، والحمد لله أوَّلًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا.

أهمُّ التَّوصيات:

١- العنايةُ البالغةُ بتدويرِ القرآنِ، واستهداءِ آياتِه وسُوَرِه، والنَّهل من مَعينه الصَّافي لتحقيقِ الاستغناءِ بالقرآنِ الكريمِ الذي هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين، وذلك من خلال عدَّةِ مساراتٍ:

٢- توجيهُ الأقسام ذات الصِّلة بحثِّ طلَّاب الدِّراساتِ العُليا على الكتابةِ في موضوعِ الهداياتِ، والتَّركيزِ على ربطه بالقضايا المُعاصرةِ؛ ليحصلَ الانتفاعُ من منهاج القرآنِ الذي هو تبيانٌ لكلِّ شيءٍ، والأمر كما قال ابن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ

جميعُ العلم في القرآنِ لكن تَقَاصَرُ عنه أفهام الرِّجال

٣- إقامةُ المُؤتمرات المُتخصِّصة لجلب الباحثين المُهتمِّين بهذا الجانب من الدِّراساتِ القرآنيَّةِ، وتوجيههم للكتابةِ في الموضوعات المُهمَّةِ التي تخدم واقعَنا المُعاصر.

٤- عملُ مجلَّاتٍ دوريَّةٍ مُحكمةٍ تعنى بجانب الهدايات تحديدًا، يشرفُ عليها نخبةٌ من المُتخصِّصين المؤهَّلين لتحكيمِ هذه البحوث.

٥- السَّعيُ في تقريب علمِ الهداياتِ، وبيان أهمِّيَّته لعموم الجيل المُسلم؛ بالتَّركيزِ على مبدأ الاستغناء بالقرآنِ الكريمِ، وذلك من خلالِ: إضافةُ مبادئ مُركَّزةٍ، مُتعلِّقةٍ بهذا العِلْمِ الشَّريفِ، وأهمِّيَّته في المناهج الدِّراسيَّةِ ذات الصِّلةِ لكلِّ المراحلِ العُمُريَّةِ المُختلفةِ، تقومُ على الإبهارِ والجذبِ، ممَّا يُساعدُ على زيادةِ الوعيِ للجيلِ النَّاشِئِ وحمايتِه وتحصينِه من الوافداتِ الفِكريَّةِ الضَّالَّةِ.

٦- عملُ مُسابقاتٍ بجوائزَ مُغريةٍ تحثُّ الفئاتِ العُمريَّةَ المُختلفةَ من الفِتيانِ والفتياتِ، من خلال: المدارس والمعاهد والجامعات على الاهتمام بموضوع الهداياتِ، وإثراء مُحاولاتِ تدبُّرِ القرآنِ، وربطِه بالواقع وتثويرِه؛ لمعرفةِ المُتميِّزين منهم، وانتخابِهم لبرنامج عِلْمِيٍّ مُكثَّفٍ يُنَمِّي مِن قُدُراتِهم، ويؤهِّلهم للتَّخصُّصِ الجادِّ فيما بعد.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١- أحكام القرآن، لابن العربي.

٢- أخرجه أبو داود .

٣- بصائر ذوي التمييز، للفيروز آبادي.

٤- التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، دار عالم الفوائد.

٥- تفسير ابن باديس.

٦- جامع البيان، دار هجر.

٧- جامع البيان، للطبري، دار هجر.

٨- حركة المعنى في سورة الفجر، للهدهد .

٩- الدر المنثور، للسيوطي.

١٠- زاد المسير، لابن الجوزي، المكتب الإسلامي.

١١- صحيح أبي داود، للألباني.

١٢- عدة الصابرين، لابن القيم.

١٣- الكشاف، للزمخشري.

١٤- مجموع الفتاوى، لابن تيمية.

١٥- معجم مقاييس اللغة، لابن فارس.

١٦- مغني اللبيب، لابن هشام، العصرية، ١٤٢٢.

١٧- المفردات، للراغب .

١٨- نظم الدرر، للبقاعي.

١٩- النكت والعيون، للماوردي.